

أبعاد المرجعيات الفكرية ونسق المناسبة في شعر عبد الحميد بن باديس

قراءة في المضامين والصورة الشعرية / د.سليم كرام

أبعاد المرجعيات الفكرية ونسق المناسبة في شعر عبد الحميد بن باديس

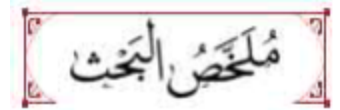
قراءة في المضامين والصورة الشعرية

**Dimensions of intellectual references and the format of the occasion in the poetry of
abdelhamid Ben Badis a reading of the contents and poetic image**

د.سليم كرام

جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)، salim.kiram67@gmail.com

تاريخ النشر	تاريخ القبول	تاريخ الإرسال
2025 / 09 / 01	2025 / 07 / 27	2025 / 05 / 05



لم تقف جهود شيوخ جمعية العلماء الجزائريين الحرة، خلال الفترة الاستعمارية على مقاومة المسخ الحضاري الممارس في شعبيها بالتنوع والتأصيل والإرشاد، بل جندت أقلامها لاستنهاض الطاقات المغيبة بمثاقفة الذاكرة الأصيلة بالمجهود الثقافي بواسطة حبر الانتساب الإبداعي الأصيل وهو الشعر، في حالة من النزوع إلى الهدوء النفسي في عملية الإبداع، فكل تلك الأعمال الإبداعية السجينة المستلبة من المتعة والانشراح، تتنفس أفكار استعادة الشخصية التي شكلت عمود عموم الإبداع نثرا وشعرا حينها، وبقيت مساحة الترويح في أضيق ممارساتها حينها، وبمجهود مشاريع التكوين الوطني وتخليد طاقات الإبداع في منتوج علماء مهمشة.

على ضوء ذلك تحمل هذه الورقة البحثية قراءة في مشروع شيخ شيوخ علماء الجزائر عبد الحميد بن باديس، حين استطاع تأثيل بيت الأدب ونفخ فيه من روحه لإثارة همم الإبداع بين المبدعين في الأدب، فكان واجهة التفكير لمنحى جزء من إبداعنا الوطني، وأسمنت صوت أمة وأرسلت رسائل أنفاس من كانوا يعيشون على هامش الحياة مغيبين.

الكلمات المفتاحية: شعر المناسبة - عبد الحميد بن باديس - الشعر الجزائري الحديث - تجربة ابن باديس الشعرية - مرجعيات الشعر الجزائري



The efforts of the elders of the Algerian Free Association of Scholars during the colonial period did not stand in the way of resistance to the cultural monastery practised in its people with awareness, roots and guidance But it recruited its pens to exhaust the absent energies by cultivating the authentic memory of the cultural effort by means of the original creative affiliation ink of poetry, In a state of tendency to be psychologically calm in the process of creativity s creativity and poetry, and the leisure space remained at its

narrowest practice. and the effort of national formation projects and creativity in marginalized scientists' products.

In the light of this paper, the Elder of Algerian Scholars Abdelhamid Ben Badis' project, when he was able to represent the house of literature and blow it out of his soul to provoke the vagueness of creativity among the creators of literature, was the facade of thinking to give away part of our national creativity, heard the voice of a nation and sent breath messages to those who lived on the margins of life absent.

Keywords: Proper poetry - Abdelhamid Ben Badis - Modern Algerian Poetry - Ibn Badis Poetry Experience - Algerian Poetry References

1. مقدمة:

يقول الشيخ الصالح عمر البسكري - رحمه الله - في ذكرى وفاة بن باديس الثانية عشر مؤبنا:

أُدكّر الناس ما استطعت ادكارا وافعل الخير واتخذه شعارا
واتبع نهج معشر عاشروا الد نيا كراما وفارقوها خيارا
واذكر اليوم منهم سيذا في ال فضل والنبل أية لا تمارى
إنه الكوكب الذي أنار الشع ب بالعلم فاستحال منارا

ولا أدري أفي أعلام الجزائر في ذاك الزمن النقي الصادق الطاهر الجميل، من لا يستحق أن يكون كذلك (منارا)، فهم وكأنك تنظر في مرآة واحدة، تحمل في وجهها صورة متكررة لـ(نجم) واحد لا تتبدل فيه ملامح الوجه أبداً، بل وتحفظ حتى بلون البشرة البنية، تنتقل من علم إلى آخر إلى ثالث، وكأننا نشعر أن روح العالم واحدة تنتقل من جسد إلى آخر، لترسم لنا جيلا لا تستطيع التفريق بين مظهره ومخبره، فألف شكر لهم وهنا أقف عاجزا تخونني الكلمات، بل لا أستطيع أن أرى مدى الإكبار والجزء الذي خبأه المولى عز وجل عرفانا لجهودهم. عاشت الجزائر مجتمعا وفكرا وحضارة أشرس عمليات المسخ والتغريب، فعاشت فيها المساعي الفرنسية التغريبية لتحويلها إلى ملحقات اجتماعي ممسوخ، لا يحمل أمام المجتمع العام أي ملامح الأمة، فجرتها بكل محمولاتها الشخصية خلف قيمها وفكرها التغريبي، وعمدت بفعل مشاريعها وأفكار ساستها إلى تغييب جميع ثوابتها، وعملت لسنوات عديدة على هدف محو هويتها بإلزام شعبيها على ثقافة استعمارية، تمثلت في عدة أوجه؛ فكان غزوا ثقافيا وكانت محوا سياسيا، وإغراءً بالمشاريع التغريبية ولعل أهمها مشروع الإدماج.

وأمام رغبتها الجامحة في الحفاظ على أرض وخيرات الجزائر الغنية، كانت ردت فعل أحرار الجزائر فأسسوا جمعية العلماء المسلمين من أجل أن تنعش قدرة حفاة الجزائر، وتساعد عراتها وتنفض في مواتهم روح الحرية وريحها، بالوقوف على مقومات شخصيتهم وقيم أخلاق دينهم، وإن وقف من يعترف بصعوبة الحمل الذي ألقى على أعاتق هؤلاء في وسط بيئة اجتماعية تخلو من كل محفز نفسي أو معنوي، فهو يرى أن الوسط «يفني العزائم ويخلق الهزائم فالحكم على أدبائنا بالكسل مع عدم مراعاة الظروف التي تكتنفهم فيه شيء من الاعتساف يحدث رد فعل في نفوس الأدباء، والأدباء نفوسهم شفافة، رفقا بالقوارير»⁽¹⁾، ومن ثم اتسعت رغبة الجمعية في إمكانية توسيع المشروع الحضاري وتدعيمه بآليات أخرى فاعلة وإيجابية فاتخذت كل ما هو متاح وسيلة واستسهلت لغايتها السامية ركوب كل عالية مستصعبة في تحقيق قضية الشعب الجزائري العادلة،

فجمعت حولها جهود المناضلين الجزائريين فكرا وقناعة وتعبيرا، فكانت بجمعهم أقوى وبايجابيات مشاريعهم التربوية والحضارية اشد وأصلب.

وتحت قوة ضغط الحياة وعضبات الجوع والحاجة، لم يجد عديد مثقفينا حينها في قوة المقاومة من سبل متعددة، إلا العودة إلى ملامح عزة ومجد العربي منذ القديم، وكان ركوب موجة التعبير شعرا سلاح لسانها مما يتاح حينها من وسائل متاحة لتحقيق الاستقرار الاجتماعي والأمان السياسي، فتكون بذلك "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" الصانع الحقيقي والفعلي لوضع إيجابي نجم عن ثورة إصلاحية وطنية وقومية وحتى عالمية شاملة بوسيلة الشعر الأصيلة مازلنا نعيش على ثمارها الحلوة إلى يوم الله هذا، فأسهمت في صيرورة الشعر العربي سواء بشعرائها الذين تغلب على معظمهم شعرية الاجتهاد أم بعلمائها الشعراء الذين تغلب عليهم العلمية الفنية، فحمله مشايخ جمعية العلماء الجزائريين حين اعتبروه لسان حالهم، مسؤولية الإفصاح والإحياء التاريخي، وسلموه قياد ألسنتهم فأعادوا به هوية شخصيتهم، وفرضوا بحده حقهم في الأرض والحياة، فشغلوا بإنتاجهم الفكري شريحة واسعة من المثقفين الوطنيين في عصرهم، وبقيت أعمالهم نموذجا للاستجلاء والمحاورة، لما تحمله من فكر إنساني صحيح، ولربما يمكننا اعتبار شيخنا الشاعر عبد الحميد بن باديس أول فرسانه الشرفاء الملتزمين به اقتناعا وبقينا وانتماءً، على متسع بسيطة فكره وأهدافه في الإصلاح.

وباطلاعي على مجموع المراجع الجامعة لشعر الإمام الناشرة لشعره قبل تأسيسه للجمعية، وما صاغه خلال نشاطه فيها وجدت مادة قابلة للإخضاع للقراءة الفنية بعد أن كانت أغلب ما أوتر عنه -في خلدي- تقارب النظم على الشعر الفني؛ إلا أن ما أحدثه تنوع إنتاج ابن باديس موضوعا وصورا شعرية أهله في كثير من مواضع القول إلى الإبداع البلاغي الفني، وتؤكد لي أن ما بلغه من الكتابة الشعرية يجعله قلما جادا ومتميزا، بل وله في محراب الشعر التزام ورهبة واحترام، معترفا أن ما أنجزه فيه إنما هو تهجد روح هائمة حاملة في رحاب دنيا الناس والوطن والفضائل، بكل ما نلمسه من إحساس رقيق ائتلف مع كيان حال، واندماج عمق جميل وحب مقدس مع القيم الكبرى في حياة وقناعات الإنسان حينها، بأكثر مما أتاحت له ظروف الواقع والمسموح.

على ضوء ذلك تحمل هذه الورقة البحثية قراءة في مستويات إبداع شيخنا العالم الشاعر عبد الحميد بن باديس من تنوع إنتاج بتعدد موضوعا وتنوع صورته الشعرية، التي هي في أصلها قناعات مشروع جمعية العلماء وأسس قناعات العاملين فيها، ولعلعة الحق تجلي مواقف تجاه محاولات المسخ الاستعماري دون تردد أو خوف منه، مقيما الحدود الصحيحة للإصلاح تعليما وتلقينا وممارسة بثقة نفس، مقدما بواسطة قوله نظما إن شئت أو شعرا الصورة الحقة التي يكون عليها حملة لواء الجهاد والراسمين لنهجه بعقل عالم وفكر رزين مطلع وفقه غزير واسع ولسان شاعر رطب مبشر أنها أولى الخطوات الواعية في نهج الحرية والخلاص من الاستعباد والظلم والقهر الحضاري الذي تمارسه قوى الشر في كل العالم وخاصة في الجزائر.

2. مرجعيات شعرية شيوخ الجمعية وارتباطها بالمناسبة:

يلتقي العديد من الدارسين الجزائريين في مجمل دراساتهم التي تناولت المنتج الشعري لأعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، على أن أغلب الإنتاج الشعري المتمخض من قريحتهم توجه مفروض اجتماعيا بما

أملته ظروف الحياة السياسية، بالتزام جواهر القوالب وثوابت وعتيق طرائق التعبير الشعري، ورغم ما يحمله من كبير التقارب في كثير من الدلالات التي تنفس فيها هذا النوع من الشعر في أدب المشاركة خاصة، وقيامه على أسس لم تنضج النضوج الذي يمكن اعتباره امتدادا لها في أعمال شعرائنا، خاصة أن المفاهيم التي انطلق منها هذا الاتجاه كانت أكثر عفوية في إنتاج شيوخ الجمعية الممارسين للشعر في ساحتنا الأدبية.

ولعل ركوب هؤلاء الشعراء موجة الشعر مرده إلى القدرات التربوية الاقناعية التي يحملها في سياقاته على غرار ما مارسه علماء النحو والبلاغة في شرح المتون النحوية والبيان والبديع أو ما سلك به علماء الدين في تبسيط الفرائض والأحكام الدينية، كما قد تكون من أهمها خصوصية المجتمع الجزائري وخاصة قصوره الفكري حينها، إضافة إلى غلبة نزعة الارتباط الديني والولاء العروبي في الاندماج بالقضية الكبرى ممثلة في الوقوف في وجه ممارسات المسخ الاستعماري الممارس في عمق الشعب الجزائري، والسعي في تحقيق ذلك من خلال توظيف كل الوسائل المتاحة في الإصلاح، وكان على رأس هذه الوسائل مجموع آليات الكتابة الفنية شعرا ونثرا وبمختلف أغراضها وأنواعها، فهو بذلك «قليل التأثير بالمذاهب الأدبية الصرفة، ميالا إلى الاعتدال والحذر في اعتناق كل شيء غير ديني وغير إصلاحي»⁽²⁾.

لقد عاش الشعر الجزائري في عموم أغراضه عزلة جرّت عليه الركود الفكري لسنوات طويلة، رغم ارتفاع بعض الأصوات الداعية إلى تحريره من النمط التقليدي والرؤية الثابتة، التي قدّست منهج الأقدمين في المحافظة على روح وعمود القصيدة الماثورة عن السلف، وعجزه عن التغيير ونفض غبار سنين الجمود الأدبي الذي علا ناصيته «مثل إناء مزركش الجوانب بديع المنظر مملوء بماء سلسبيل، وقد مر على ركوده مدة غير وجيزة، فننتنت رائحته وفسد طعمه (...) أليس من المعقول بل من الضروري تبديله بماء صحي نظيف زلال (...)»، وأما الإناء فيتترك هو هو بلا تغيير ولا تبديل»⁽³⁾، لذلك نعتبر أن تأثير الثقافة الفقهية التي صبغت إبداعات شعرائنا قد جردت الشعر «من كل ملامح الجمالية ولم يبق له من عناصر القصيدة غير أجراس التفعيلة»⁽⁴⁾، وساهمت في قص جناحيه ومنعته من التحليق في سماء المشاعر، نظرا للاعتبارات الأخلاقية التي أسندت إلى الشاعر، باعتباره يؤدي رسالة الإصلاح التربوي في جو مشحون بالمتناقضات، واستخدام الشعر وسيلة فعالة في ترسيخ ثوابت الأمة من دين ولغة، واعتبار كل ما يخرج عن ذلك من شعر في عداد البدعة المنكرة، التي لا ترتضيها الحركة الإصلاحية التي سيطرت على الحياة الاجتماعية.

لقد كانت دعوة الجمعية لممارسي الشعر فيها إلى تهذيب صياغته، وتلطيف لغته حتى أعطاه صبغة خاصة جمعت بين الهدف الإصلاحي، والتنفيس عن الروح تعبيرا عن مشاعر الألم والحزن أو حتى مشاعر الإحساس بالجمال، فقد كان تتبع أقطاب الحركة الإصلاحية ممثلة في رئيسها الأول الشيخ الإمام "عبد الحميد بن باديس" ومن بعده العلامة "محمد البشير الإبراهيمي" بقلمهما السيال في مقالات نقدية بتوجه فكري وإصلاحي؛ فثار بن باديس على "الشابي" في محاضراته (الخيال الشعري عند العرب)، التي عاب فيها طبيعة التصوير الشعري، واعتبر أفق صاحبه قاصرا إلا على بعض الصور المستوحاة من الواقع القريب وخاصة المرئي منه، واعتبر الإمام تلك الدعوة جريمة وإصغارا لأمر الأدب العربي، وإنقاصا من شأن الشاعر الأصيل، في حين شجع وناصر مشاركا

بمقالاته تنصيب أحمد شوقي أميراً للشعراء العرب، لذا وجدنا من الصيحات الأولى للاهتمام بالشعر صحيحة الشيخ بن باديس قائلاً: «الشعر العربي هو أصل ثروتنا الأدبية، وأصل بلاغتنا ومرجع شعرائنا في اللغة والبلاغة وأساليب العربية، فدراسته والاستفادة منه أمر ضروري لحفظ هذا اللسان الممين، فكيف نبني دعوتنا إلى توسيع الشعر العربي بالتزهد فيه»⁽⁵⁾، وكان منهج الشيخ "الطيب العقبى" في اعترافه «وما سلاحي الذي أبارزهم به إلا صبابة مما كان علق بالذهن، وبقيّة من الوطاب من آثار التربية الإسلامية والعلم الصحيح»⁽⁶⁾، وكان ذلك خشية الابتعاد عن جوهر القضية وهي ترسيخ ثوابت الأمة في لغة وأفكار جادة بعيدة عن لغة العواطف.

أما "الإبراهيمي" فقد بلغ عشقه للأدب القديم وثقافة الأسلاف حدا جعل منه يدفع كل مبتدئ إلى الاطلاع عليها، واعتبرها محطة لا بد منها لإجادة الشعر والنبوغ فيه، وجعل مقياس ذلك القدرة على توظيف اللغة الجادة «فكان كثيرا ما يدرس الإنتاج الشعري من زاويته اللغوية، وقيّمها بناءً على هذا التصور إلى حد جعله يعتبر التضلع في الأدب العربي القديم مقياسا يزن به الجيد والرديء من شعر الشعراء، ويعتبر تفوق هذا، أو إخفاق ذلك إنما يرجع أساسا إلى مقدار عنايتهم بالأدب العربي القديم وتشربهم له»⁽⁷⁾، وفي سياق الاعتراف نستأنس بمقولة للشيخ عبد الوهاب بن منصور معترفا بمكانة أدباء الجزائر: «لست متشائما ولا بأئسا فأزعم أن الجزائر خالية من الأدب، خاوية من الأدباء، كما يحدهو اليأس ببعضهم أن يقول، فالواقع يثبت لنا عكس هذا، والعيان يؤكد لنا أن فيها الشاعر الفحل، والكاتب البليغ والخطيب المصقع، والباحث المطلع، والمتخيل البارع، والمتقف النابغ والمفكر العبقري»⁽⁸⁾.

وبما أن الشعر في شرعة رواد الإصلاح الديني في الجزائر كان وسيلة تربوية، وكان منطوقهم النظفي فيه يحمل التوجه الإصلاحية، دون القدرة على التخلص من النبرة الخطابية، لهذا فالمطلع على سيرة المنتوج الشعري لرواد جمعية العلماء، قد يدفعه التفاوت في طبيعة الأعمال إلى التساؤل عن حقيقتها، ومدى إسهام شعرائها في خدمة الشعر العربي عموما والشعر الجزائري خصوصا شكلا ومضمونا كما وكيفيا بتنوع الأغراض الشعرية وبثرائها في أسلوبها وفي موسيقاها العروضية وفي أهدافها السامية وغاياتها النبيلة أيضا، فأكثر «ما يقوم الإنتاج الأدبي على إثارة العواطف وتوجيه المشاعر بكلمة لافتة، أو نكتة بارعة، أو إلزام بالنظم أو الكتابة، وهناك وسيلة أخرى لعلها ابرع هذه الوسائل كلها وهي الهدية الشعرية التي تهز الكيان الأدبي في نفس المهداة إليه»⁽⁹⁾، بل إن اهتمامهم بالشعر فات الأغراض الأدبية الأخرى، والجزائر لم تعرف قبل ظهور الحركة الإصلاحية المتمثلة أساسا في جمعية العلماء حركة أدبية وشعرية قوية وبارزة وذات معالم واضحة، استطاع قرائح شعرائها أن ترسم بواسطته صورة الدمار والكآبة الأبديتين، ولله در شاعر استطاع أن يرسم من الكآبة حلما، ومن الدمار حياةً للأمل ورموزا للخلود والشموخ في نفس أبية تنفست في وسط محافظ تقليدي بأسلوب إبداعي، حديث جمع بين النقيضين ليكون منهاجا خاصا به لا تحكمه ضوابط العموم ولا ترسمه روايب شعورية مفروضة، بل كان الشعر فيها ممارسة واعية وواسعة «ونريد أن تؤكد أن معظم شعراء جمعية العلماء المسلمين لهم أشعار لو جمعت لمألت دواوين، ولكن بعضهم أضاعها، أو ضاعت منه، وبعضهم عزف عن نشرها تواضعا أو عجزا ماديا»⁽¹⁰⁾.

وفي إحصائية لطيفة وحوصلة حول عدد رواد الإبداع من شيوخ الجمعية؛ فقد بلغ عدد الأسماء المشهورة العاملة المؤثرة في فضاء الجمعية الدعوي مائة وثمانية وثلاثين (138) اسما، وضمن هذا العدد مارس الكتابة والأدب عموما سبعة وأربعين (47) اسما، وضمن هذا العدد بلغ عدد الشعراء بينهم سبعة وثلاثون (37) اسما كان الشعر مكونا أدبيا سيطر على منتوجهم الفكري العام⁽¹¹⁾.

كما أن الجمعية اجتهدت في نشر تلك الأعمال لإخراجها من الظلمات الى النور بتجهيز الوسيلة المناسبة، فاستخدمت تلك الجرائد لغاية اكتمال المهمة الحضارية، فحوّل الشباب الواعي والمثقف صفحات البصائر إلى منبر ثقافي وفكري حتى أنها باتت عرابة النهضة الفكرية الحديثة في الجزائر، فارتقى خط خطاها وتطور وسمى مسار الكتابة والطرح فيها حتى استوى لها موضع الاحترام والتبجيل في قلوب الأقلام العربية حتى قبل الجزائرية وحظيت بأكبر تقدير واحترام وازينت بحضور فطاحل الكتابة النثرية والشعرية الإبداعية والنقدية عندنا.

ولتأكيد اهتمام رجال الجمعية بالشعر تجلت في حرصهم على إشراك كل من له قدرة على قرضه وبناء قصائده بدعوتهم للمشاركة من خلال المسابقات التي كانت تقام هنا وهناك خاصة التي ترد في صحف الجمعية، وربما تساءلت الشهاب أو البصائر بماذا تحي الجزائر؟ وطرحنا السؤال موضوعا لمسابقة شعرية، أو ربما أقيمت هذه المسابقة الشعرية في النوادي والمدارس والمساجد التي تشرف عليها الجمعية، كما كان من مظاهر الاهتمام بالشعر.

وما يمكن أن يكون خلاصة القول في اقتران جمعية العلماء بالشعر ما قاله أحد أقطابها ونشطاءها العاملين الشيخ الشاعر أحمد سحنون من اعتراف صريح:

لا شعر كل مخنث ثرثار	هذا هو الشعر الذي ندعو له
تبني العلا وتشيد كل فخار	ما الشعر إلا دعوة بناءة
أنت والكتاب لرسله الأبرار	الشعر من وحي الذي أوحى الشر
أهلا لوجي روائع الأشعار	من لم يكن للوجي أهلا لم يكن
لا يصلحون لخوض أي غمار ⁽¹³⁾	فليسكت المتخنثون فإنهم

3. عبد الحميد بن باديس وستة الشعر كوسيلة خطاب للجماعة:

إن الظروف السياسية التي عاشتها الجزائر في مطلع القرن العشرين، والموسومة بالظلم الاستعماري والاضطهاد الذي عاناه الشعب بكل فئاته وشرائحه الاجتماعية، وإذا أضفنا إليها روح الرفض التي يتسم بها الجزائري، وتبنيه لمبدأ المقاومة السياسية ومن ثم المقاومة المسلحة والتضحية في سبيل الوطن، اعتزازا بهويته التي غرست في أعماقه وإيمانه المطلق بالإسلام، كل هذه العوامل تضافرت في روح الشعر الذي انبعث في نفسه وقد تخمّرت فكرته في عمق هذه الروح الثورية، واقتبست دلالات الثورة ما شحن مصطلحاتها ووقعها بنبض من وفاض هذا الغضب العارم والرفض الصارخ، فأنطق حال الجزائر وواقع معاناتها الشاعر بكل أنواع الكلام.

واتسعت مداركهم وامتصوا رحيق الرجولة واستنشقوا أريج الوطنية واستحلوا عبيرها واستنطقوا بها كل كيانهم واستفرغوا فيها كل عواطفهم، فانبجست أمام نواظرهم آيات الحقيقة المطموسة بأيادي الظلم

الاستعماري، وها هي قد أصبحت رمزا ودلالة واقع ولم تصبح وهما بعيد المطلب والمنال، بل أصبحت الجزائر أمًا يهرعون إلى حضنها ويسترجعون ذكريات الطفولة والبراءة والحنان في عالمها بعد أن أوهموهم بأكاذيب التاريخ أن الأرض ليست لهم، بل وأن الجزائر كلها تخلت عن حقيقتها ورضيت بأن تكون قطعة فرنسية، فاستصرخ ابن باديس ضمائر الشباب لإعلاء الحقيقة والوقوف في وجه التزييف التاريخي والكذب الحضاري،

من هنا آمن شيخ جمعية العلماء المسلمين بقضية الشعر وقوة دوره في الصراع الحضاري، ودعا إلى استدعائه والتواصل معه على أنه عصا أصيلة يلوح بها ويلجأ بل ويستأنس بها في لحظات شعوره بالخيبة والاستضعاف، وأداة للتعريف بالهوية وطرح الأفكار، فعامله على أنه صوت في لحظات الصمت، وجواب على كل موقف حضاري يقف غصة في حلق المستضعفين وأسلوب للتعبير عن حقهم في صورة الحياة المدنية، وحث وشجع كل قادر عليه أن يكثر من الاستجارة به في قومة الجمعية الحضارية بكيان الجزائر إنسانا وتاريخا فقد لقب "محمد البشير العلوي" بشاعر الطبيعة أو الأديب الحساس، بل وأنصف شاعرا مغمورا مجهولا على صديق دربه، ولم تأخذه تلك العلاقة أن يصدق برأيه قائلا عن عاشور الخنقي: «إنه أحق بلقب أمير شعراء الجزائر من محمد العيد، لأنه يعتبر من الشعراء الفحول ولأنه يحفظ الأغاني عن ظهر قلب»⁽¹⁴⁾، واجتهد في إثارة الشعر ذاته بإضافة ما يملكه من أدوات فنية إلى خدمة صرح رسالته الحضارية، فزاد في سعة صورته الخطابية التي درج عليها أساطين الشعر الذين تعلم منهم، حتى غدا قائمة تُرى بينهم في ارتفاع مقام ومزاحمة إبداع.

لقد أرسى ابن باديس في جزائر الاستعباد قواعد لبناء الذات واتخذ الحركة الشعرية مصعدا مادام أنه كان وسيلة آبائه وأجداده، وإخلاصه ووطنية هدفه أدت به إلى أن يكون أحد أضلاع شعراء الظل، الذين كان تهافتهم على إتقان الشعر إنما بهدف تفعيل رسالة الإصلاح وتعويض قوتها بطاقة جديدة، لذلك اهتم بإجادته وقرضه، ولكن بعد شرح الشباب وحمية الثورة واندفاعها، وجه طاقته إلى آليات أخرى صبغ بها مداد قلمه فكان إلى جانب إيقاع كلام الشعر استوصى بهدير لغة النثر، فحمل بعد ذلك لواء الصحافة ولم تعد قصيدة الشعر إلا سند حمية في صرخة النضال.

لقد كان الشعر في شرعة شيخنا كتابا مفتوحا؛ يقدمه بأسلوب ذوقي يعرض من خلاله مشاعره التوددية، ويرسم من خلاله أصالته التي لا يعتبرها فقط في القول العربي أو الجبة المطرزة التي قد تقدمه قبل الإفصاح كبطاقة تعريفية تشمل طبيعة المنبت الاجتماعي والقناعات النفسية، وصورة مجسمة عن بناء عالمه الفكري الثقافي والإبداعي، وما صفاء تلك التجربة الشعرية قولاً ودلالة وإيقاعاً إلا مرآة لصفاء طبيعة المنشأ التي صبغت طفولته بأساير نقية، نلمحها من خلال اعترافاته بتفضيلها عليه كحضارة إنسانية أصيلة في بلوغ ما وصل إليه من مكانة، منطبعة في إنتاجه الفني ترسمها تلك اللغة التقريرية الفصيحة، التي تجسد ملاك رؤيته للأشياء والأحاسيس، بل وعالم الموجودات من حوله أو كما يتصورها، فقد كان شاعرا موهوبا «يقرض الشعر وينظمه على قلته وشعره سلسل عذب، يمتاز بالبسالة وصدق العاطفة والبعد عن الغريب، ولذلك كانت قصائده تطرق القلوب والأفئدة قبل أن تطرق الأذان والأسماع، فمن قصائده التي ما زالت تتردد على الألسنة إلى اليوم القصيدة "شعب الجزائر مسلم»⁽¹⁵⁾.

لقد عاش شحرونا العروبي أصيلا تجري الفصاحة على لسانه مجرى الدم في العروق، لا يغالبه فيها خور ولا يلجمه في توظيف مفرداتها عائق، ترتاح على جنبي لسانه وتنتال من طرفه بعقب الأصالة السلسلة، تتراءى سبائك مصقولة تشد بعضها بعضا، أما المعاني فتتسابق في دلالتها مع بنائها، لا يظهر فيها عوج ولا يجتاحها أمة، تستغرق المعنى المقصود ولا تكون له سببا في تشتت أو ضعف دلالة أو خلل أو خلط، وليس ذلك بغريب إنما هي صورة لانتظام صاحبها، وما حظي به من تكوين ثقافي أصيل، قوّم لسانه وسدد بيانه ومنح قلمه ثقة أكبر في خوض مجال الكتابة، فنى ميله للشعر بتذوق منتوج أقطابه قديما، وأحيى إحساسه بقضاياها، وخاصة ما واجهته الذاتية والقومية جراء ما من سياسة المسخ الاستعماري الممنهج، وبقاء صدى الروح الوطنية تصدح في منابر التظاهرات الثقافية بقصائد التواصل الشعوري مع قضايا الأمة الاجتماعية، التي بات التوحد الإبداعي من أهم صورته، فأصبغ الإنتاج الشعري بصيغة انفعالية مناسبة، أجمت أو اصر الشعور بالقومية والانتماء فتغنى « بعروبة الجزائر كما لم يتغنّ بها من قبل، وتنطلق القومية انطلاقة شعرية فيها عنف الاحتباس الخانق طيلة الاحتلال الفرنسي، وتطفو على كل بيت في كل قصيدة»⁽¹⁶⁾ فغلبت على الأدب روح القضية والتزام مبادئها، ولم يمنح نفسه متسعا من الحرية في الإبداع خارجها.

لذلك كان البحث عن الهوية -التي أريد لها أن تغيب في عهد الهوان- في وسيلة الشعر، وما كان لشعراء الجمعية من جهد مضني في استعادة الشخصية المنكّبة من خلاله، أجبرهم التفكير على الانشغال التام عن الإبداع، الذي زالت أهم دوافعه ممثلة في الصراع الحضاري الذي عاشه بالوجود الاستعماري، فما عاد الشغف كما كان عليه، ولا أصبحت القيمة كما جرت عليها زمن الصراع، فلم تحفل الساحة الأدبية بمن أمسك على جمر القصيدة بإجهاد واجتهاد ولأزال صدى المروءة والتحدي يعلو مساحة إنتاجه متباها معترزا، تحتفي جرائد الجمعية وغيرها بأن كانت منبره . على قلتها . تنشر بين الحين والآخر صداح الوطنية الحماسية، غير أنه «شاعر مقل لكن شعره من النوع الجذاب صياغة والهادف المحتوى فهو يحمل رسالة إصلاحية وطنية»⁽¹⁷⁾.

ولعل من المفيد لنا أن نطل على حياة شيخنا الإمام ابن باديس الفنية، وأن نضعها في قياس مع ما تحقق للشعر في ذلك الزمان، حتى يكون مدخلنا إلى عوالمه الشعرية من ملامحه كإنسان قبل جهة المبدع، وهكذا تكون إطلالتنا مفعمة بالكثير من الألفة، فبعد أن اكتملت فيه صورة الإنسان الذي هيأته ظروفه الاجتماعية والنفسية واطلاعه الفكري ليكون إماما وشيخا لا شاعرا فنانياً، فقد قضى زينة أيام شبابه وأهمها منتسبا لحلق العلم والتقرب من العلماء فتبلورت شخصيته طالبا للعلم حريصا على تحصيل كل ما يمكن له من معرفة وتجربة فما كان ممن يستعذبون اللهو أو يطلبون أسباب الراحة بل استثمر كل أوقات يومه بل ودقائقه ولحظاته بين جلسات المعرفة والاطلاع مشاركا ومنتجها محصلا ولذلك كان الأغلب الأعم في كتاباته شعرا ونثرا إنما ارتبط بأحداث الجزائر وحوادثه الشخصية وعلاقاته العامة والخاصة، «فقد أعطى نشاط ابن باديس والحركة الإصلاحية عموما للحركة الشعرية دفعا كان بمثابة الانطلاقة نحو تحقيق تاريخ حافل بالتطورات البارزة التي مست جانب الحركة الشعرية في الجزائر ما بعد سنة 1925»⁽¹⁸⁾.

عرف ابن باديس بتطرفه في حب الجزائر وبقينه بعزها وكرامتها، وثورته الزائدة للحق والدين والقيم الإنسانية، وذلك ما صبغ بهم نتوجه الفكري فما تميز به أدبه على اختلاف موضوعاته وعلى اختلاف ألوانه هو امتزاجه بالفكر الإسلامي لذا كثر في أدبه الاستشهاد بالقرآن الكريم وبالحدِيث الشريف وبأمثلة من مواقف المسلمين العظماء، وكان موجها لخدمة المجتمع، ولذلك اتصف بالصدق والأصالة، وجاء تعبيراً عن تجارب حياة ومواقف طبيعية وسجل أحداث عصره تسجيلاً أميناً، وبلغ من اهتمام الشيخ بالشعر أن عمل في البداية مع جماعة من أصحابه عرفت باسم (جماعة الشهاب) من خلال دورية الشهاب، حيث أعطى عناية للأدب وبالأخص الشعر الذي كان عليه التركيز، فكيف لا؟ وأحد أفراد هذه الجماعة هو الشاعر محمد العيد آل خليفة، وقد خصصت الشهاب صفحة أو أكثر للشعر.

وأصدق ما نستشهد به على عفة ابن باديس أصلاً ومنبتاً سلوكاً واجتهاداً نضالاً وجهاداً ما تلخص في قوله واصفاً نفسه: «إني أعلن أنني لست لنفسي، وإنما أنا للأمة أعلم أبناءها وأجاهد في سبيل دينها ولغتها، وإن كل من يقطع علي هذا الطريق، أو يعوضني عن أداء واجبي في هذا السبيل فإني لا أرضى به، ولو كان ذلك من مصلحة الأمة»⁽¹⁹⁾.

4. أبعاد المناسبة الفنية للصورة الشعرية في شعر ابن باديس:

من المتعارف عليه أن الشعرية الصوفية كلاسيكية، لا تطرح نظرية إجمالية لماهية الشعر أو كيف ينبغي أن يكون، أو تجسيد هذه الآلية بوسائلها الجمالية كما يفعل المبدعون، إنما يرى الشاعر الصوفي الشعر وسيلة لتقديم معانيه من فيض الرؤية الوجودية، لكن انطلاقاً من سمو هذه الشعرية عن الواقع الحسي واتخاذها لعالم الحلول منطلقاً لها كون الصوفية ترى الكون على مراتب تتمثل المعاني المجردة عن الأشياء التي من شأنها أن تدرك بالعقل أو من شأنها أن تدرك بالحواس المجردة فهي موجودة بالفعل والعقل وما تمثله المتخيلات وهي التي تشكل المعاني في الصور المحسوسة والشاعر إذا تبني الفكر الصوفي تتداخل تلك المراتب في نفسه تتداخل الوسائل والآليات ويجاهد النفس للسمو من العالم السفلي المحسوس إلى العالم العلوي المعنوي بهدف المكاشفة والمشاهدة للحلول، فالتجربة الشعرية وفق ذلك يمكن اعتبارها تجربة ذهنية ترافقها تجربة جسدية لا تهدف من خلال التعبير عن المحسوس لذاته إنما غايتها تهيئة النفس للدخول في عالم الخيال الحقيقي.

ولم تختلف التجربة الشعرية الباديسية ولم تتعد عن تلك التصورات سواء قبل إنشائه لجمعية العلماء أو بعد أن رسخ معالم أهدافها وبات محور فكرها وملجأ تفكير شيوخها ومريدها وقودتهم الموثوق به، لذلك استلهم منهج الشعراء الصوفيين في التوجه لاستلهم المعاني بالاستناد إلى الشعر العربي فاتخذ من أغراض الشعر المعروفة قديماً منهجه في التعبير غير أنه اتخذ من مصطلحات خاصة وصور محددة عاملاً للاختلاف، هذا وإن وصف الشاعر المتصوف بالنظم والتقليد وأن العديد منهم لا يملك الموهبة إنما فرض عليه التعامل مع هذه الوسيلة، وما يهمه حينها من اعتماد هذه الوسيلة هو الوصول إلى قيمة اعتباره متصوفة مبدع لا لاعتباره شاعر مبدع، غير أن الوضع في تجربة ابن باديس لا يمكن إغماط حقه في الإبداع في مجال هذه الوسيلة ممن كتبوا أسماءهم في لوح الخلود وديوان شعراء العرب قديماً وحديثاً.

لقد كانت للحركة الشعرية في تجربة فارسنا ابن باديس دور وأهمية في إقناع كل رواد الجمعية أو على الأقل عدد هام منهم بقرض الشعر وتطهير هذه الوسيلة تأسيا برسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقحمه وسيلة من وسائل الجهاد فطهره من أغراضه اللهوية وخصه بالقيمة والقداسة فرفع بلسان حسان بن ثابت من شأن هذه الوسيلة بعد أن حذر منها القرآن وسكت الشعراء المسلمون عنه ردحا من الزمن، وهكذا أراد متصوفة الجزائر وعلمائها وخاصة في حرم جمعية العلماء إلى ترفيته وجعله وسيلة تواصل فكري وأسلوب تكامل حضاري وأخلاقي، ومن القضايا التي تقرر اقتصار الشعر عليهما ما كان لها حضور في شعر ابن باديس وقد جمعت تلك القصائد عدد قليل من المراجع، يمكن حصرها فيما طرقة في عددا من قضايا الأغراض العامة التي استقلها الشعر منها:

أولا: شعرية المناسبة: من الطبيعي أن تكون لقصيدة مثير يدفع الشاعر إلى إنتاجها ومناسبة تكون سببا وباعثا على قول أبياتها، فمصطلح المناسبة « لا يدل في الواقع على مذهب أو مدرسة معينة في الشعر أو الأدب بقدر ما يدل على اتجاه معين فيه، يعبر به أصحابه عن عواطفهم ومشاعرهم وأحاسيسهم فيها، فإذا انتهت هذه المناسبة انتهى شعرهم فلا يبقى منه أثر إلا وكان له علاقة وصله بهذه المناسبة أو تلك»⁽²⁰⁾، غير أنها في مفهوم شعر المتصوفة تمثل قصيدة المناسبة مثيرا معينيا وباعثا خاصا مرتبطا بحدث يكون قوامه حدث مرتبط بالعقيدة والعلوم، فلا تندفع في خلد هذا الشاعر الرغبة في نظم القصيدة إلا إذا هزت أعماقه حوادث كبرى العقيدة والدين كالاحتفاء بالأيام المباركة المقدسة التي تعمل على ترسيخ العقيدة والإيمان أو الاحتفاء بالمواليد العلمية والفكرية التي يرونها إضافة لمكتبة الحضارة الإسلامية وميراث الفكر العربي كتقريظ للعلماء وثناء على جهودهم المباركة في نشر الدين الإسلامي ومبادئه.

1.4. تقريظ الإنتاج والأشخاص: وذلك من ذكر جلائل الأعمال الفكرية من تهنئة لإنتاج أو لمولد أو لغيرها من المناسبات الخاصة والعامة لترسيخ هذه الجلائل من خلال شخص المقرظ، قال صاحب المعجم المفضل في الأدب في حصر مدلول المصطلح: «التقريظ: سبغ الثناء على عمل أدبي أو غير أدبي أو مدح لشخص على ما قام به أمام حشد من الحضور»⁽²¹⁾، وهذا النوع من شعر المناسبات قد امتزجت فيه العديد من الأغراض المذكورة ففيه التوسل وفيه مدح الصفات وفيه إبراز المقامات ونهايته غالبا ما تكون بالصلاة والسلام على النبي الكريم، فالمدح يكون للحي والميت، والتقريظ لا يكون إلا للحي، وخلافه التأيين ولا يكون إلا للميت، يقال أبنه يؤبنه تأيينا.

وقد ظل توقيير ابن باديس لمنهج السلف وإعجابا بممارساتهم النقدية وأدوات وأساليب تفكيرهم، كان له في ممارسة التقريظ عرفانا برجال الإصلاح عامة وتوقيرا لأتباع الطريقة العزوية خاصة، وعلى رأسهم شيخه الأكبر وصديقه الإمام الطاهر العبيدي، الذي يخف مدى إعجابهم بمنظومته في الدعوة للطريقة العزوية "رسالة الستر"، فقام يثني على ما تحمله من فوائد العلوم وفضائل المعارف والأخلاق، وقد سبقت القصيدة رسالة توقيير وعرفان للعلامة، يقول في بعضها: «وبعد فإني بعد أن سمعت هذه المنظومة من مؤلفها العالم العلامة الشيخ سيدي الطاهر بن العبيدي قلت هذه الأبيات خدمة للعلم وإشادة بفضل هذا الرجل العظيم، ومنظومته المزرية

بالدر التنظيم، على حسب ما سمح به خاطر الكليل القاصر»⁽²²⁾، أما تقريضه للرسالة شعر ما قاله فيها وهذا بعض أبياتها:

ذي درر حسنة التنضيد ** سالمة من وصمة التعقيد
جامعة للقصد والمزيد ** تُدني الجَنَى لكل مستفيد
من نظم زين العلماء العبيدي ** جازاه رب الناس بالمفيد
من العلم والعمل والتأييد⁽²³⁾

كما وقد قام الشيخ عبد الحميد بتقريض كتاب ضخيم مؤلف ضخيم جمع فيه صاحبه وهو الفرنسي "إيدموند قوفيون Edmont Gouvion" المسمى "أعيان المغاربة" لما جمع فيه جهده من تعريف بأعلام المغرب العربي وأصول عائلته وتواريخها حتى بات مصدرا عزيز وهاما من مصادر التأريخ لحقبة طويلة من الأثر الفكري والتاريخي يستأنس به الباحثون وتثق بأخباره الدراسات المهمة بهذه الفترة في هذه البقعة المساهمة في كتابة تاريخ الحضارة الإسلامية، ونقف على سماحة نفس الشيخ ابن باديس في احترام العلم وأهله فلم تأخذه غضبة الدين وعداوة الاستعمار أن يجانب الحق ويرفض الفائدة التي تأتي من فرنسي وزوجته وقد صدقا في جمع المعلومات وعرض على الباحثين لعموم الفائدة ونشرها، بل على العكس من ذلك قام الشيخ بتقريض الكتاب والثناء على جهد صاحبه مادام يحمل أنوار العلوم وأخبار الفكر والمعرفة للخلائق، فجاء قوله:

للعلم رابطة تربي على النسب	عند الألباء من عجم ومن عرب
فهذا (قوفيون) من فرنسا همته	إحياء ذكر بيوت المغرب النجب
وعرف الناس في مقدار سادتهم	من القديم وأحيا دارس النسب
وعادة في كبار الناس أنسبهم	بذكر كل كبير من ذوي الحساب
لكن نخلده وسط القلوب كما	خلدت من ذكرنا في باطن الكتب
ومهما تأت من الإحسان غايته	فليس في ذاك عند الناس من عجب ⁽²⁴⁾

2.4. رسائل: عرف التراسل كفن منذ القديم وكان وسيلة تواصل فنية يحفظ التاريخ فيها عن لوحات فنية تحمل من البلاغة وابداع الصورة الفنية شكلا ومضمونا ما يفوق فيها ما كان يعتبر من أنها قطعة وأسلوب فحسب بل حملة في بطونها من حبر المشاعر ونقاء الأحاسيس صورا جعلتها فنا أدبيا قائما بذاته، وكان الصوفية فيه لا يحد بمقياس والذاكرة تحفظ للشيخ ابن باديس مراسلات فنية مزجها نثرا وشعرا كانت تحمل مشاعرها وتقدم في صورة فنية بالغة في البلاغة والجمال احساسه الخاص اتجاه أحبته وأترابه من روابط العلم والمعرفة، وهذه صورة عن تلك المراسلات:

أولى مراسلته في بحثنا ههنا مراسلة إلى صديقه حسين بن شريف: وقد أعجب بها الباحث عبد الله حمادي وأورد ممتها، واعتبرها من أمتع رسائل الأحبة والأصدقاء، ويقول «فإنني لا أبخل على المتطلعين لأخبار هذه الشخصية، بالكشف عن مضمون مراسلة نادرة أخرى، يعود تاريخها إلى أيام دراسة الشيخ عبد الحميد بن باديس بالزيتونة وبالتحديد عام 1325 هـ الموافق تقريبا لعام 1908 ميلادية»⁽²⁵⁾، وقد أصحبه النص المستنسخ

بصورة من الأصل المكتوب بخط الإمام عبد الحميد بن باديس توثيقا للرسالة وتحقيقا لأمر وجودها حتى لا يدخل الريب الخوالد في انكارها، ومن مضمونها تاريخ تحريرها وإرسالها، يوم الأربعاء 22 شعبان المعظم سنة 1325 هـ من أحيكم على الدوام عبد الحميد بن باديس⁽²⁶⁾.

وما يخصنا فيها هنا ما حوته من كتابة بالشعر وتمثلت في قوله:

واني إلى نحو الحبيب أريد	سلام على الأحباب في كل منزل
ولكنني عما أريد بعيد	وإني لأهواكم وأهوى دياركم
تراكم تروني بالعيون على بعد	أراكم بعيني من بلاد بعيدة
وعندكم روجي وذكركم عندي	فؤادي وعقلي بأسفان عليكم
ولو كنت في الفردوس أو جنة الخلد ⁽²⁷⁾	ولست ألد العيش حتى أراكم

ولا يخفى على قارئ هذا النص جمال التعبير عن الشوق وما تحمله الصورة من رقة مشاعر وحسن بل وجمال أسلوب التعبير عنها من مثل قوله " تراكم تروني بالعيون على بعد، وعندكم روجي وذكركم عندي"، ولا يختلف متذوقان للأدب فيما تحمله نهاية الرسالة من إبداع، كما يقدم نفس الباحث نموذجا آخر لمراسلة بين الصديقين نفسيهما وكان الشيخ ابن باديس باعنا لها؛ معبرا فيها بشعر بهي الصورة بديع السياق رقيق اللغة والمشاعر قانلا فيه:

وروجي وقلبي ثم ألف تحية	سلام على أخي الصفي وراحتي
إليك، وشاقتني إليك صباقتي	سلام عليكم كلما هزني الهوى
ولم تخل منكم طرفة العين فكرتي	(حسين) فإن القلب شوق نحوكم
إن غبت عن عيني فشخصك قبلي ⁽²⁸⁾	فأه .. على بعد الديار وأهلها بل

وعلى ما كان في رسائله إلى خله الصفي وراحته وروحه وقلبه مما كان من مراسلاته المازجة بين النص الشعري والنثري، كان التقدم للنثر على الشعر ما عدى في هذه الرسالة تقدم الشعر وما أراه إلا قد تملكه الشوق والوحشة ولم ير شيخنا إلا لسان الشعر أجرى للمشاعر وأقرى لسلام الأنفس النقية وأسرع للتعبير وأصدق للتصوير وأدق في التأثير لتكون رسالة النثر دعما لما حملته أبيات الرسالة الشعرية المحدودة، فعبر فقال: «حبيبي الأوفى وصديقي الأصفى الأكمل مودة من كل حبيب الأعز علي من كل قريب المحتوى مني على القلب وسويده بلغه الله ما يحبه ويرضاه وأبعده عن يسوؤه ويخشاه؟ الشاب الظريف ذي النسب الكريم والعرض النظيف أخي وخليلي حسين بن شريف. عليك مني مزيد السلام والتحية والإكرام كلما هب نسيم وغرد حمام، فوالله رب الأرباب المقدر بالفراق بين الأحباب ما حلالي بعدك لا أكل ولا شراب»⁽²⁹⁾.

كما كان للصديق الشيخ الطاهر العبيدي حظ وافر من مكاتبات ابن باديس وكانت بينهما تدار الرسائل، ويا لحظ الشيخ المعلم بحب واحترام مريده، بما كان ينثال من قلبيهما العامرين بحب الله إيمانا وتقديسا، حتى اقتسم كل واحد لصاحبه جزءا من قداسة المحبة للآخر، وفي إحدى تلك الرسائل وقد أسبق متنها بنص نثري طويل يحمل من جميل المعاني وبديع التعابير ما تنوء الكلمات حمل سامي المشاعر المنثالة من سياقه، كان فيه

التودد والتأسف والشوق في أسى مراتب الجمال وأبهى حلل الرقة والبهاء⁽³⁰⁾، أما ما تذييل تلك الرسالة بمحمولها الشعوري الملائكي، وما تشيعه من حب نقي صاف ما يقوم برهاننا على نقاء السيرة الانسانية في أشرف مظاهرها، ما زين تلك الخاتمة هذه الأبيات التي تلخص مشاعر الاعتذار في أرقى مظاهر تلك المشاعر يقول:

إن كنت قصرت في الكتابة *** والله ما ملت عن وداي

وانما كان ذاك مني عن *** غفلة ليس عن مرادي

فسامحوا طاهري بفضل *** وحلم سكتنا فؤادي⁽³¹⁾

3.4. المناسبات الدينية العامة والخاصة:

3.4.1. المولد النبوي الشريف: وهو الغرض الذي شاع وانتشر بين شعراء الصوفية شرقا وغربا فغنت أقواله بذكر الرسول وتعظيم مولده وإبراز صفاته ومقوماته وجليل أعماله ويعتبرها الصوفي من أبواب القربيات إلى الله عز وجل، ومن بين ما قاله شيخنا ابن باديس في تخليد هذه المناسبة العزيزة على القلب:

ذكرى الحبيب فكن يا قلب جدلانا روح من جناب القدس ريحانا

وأحيا ليلة وضاءة لم يزل تاج الزمان بها في الكون مزدانا

ذي ليلة شرفت بالمصطفى فلها حق السيادة أزمانا فأزمانا

فنال تابعه عزا ومكرمة ونال شأنه ذلا وخسرانا

فالحمد لله إذ كنا له تبعنا على تفاوتنا دينا وإحسانا

وأخي مولده في العالمين كما من ميثة الجهل بالإسلام أحيانا⁽³²⁾

هي رسالة حية واعتراف صارخ بالأصل الإسلامي والتزام بمبادئه في صورة من الإبداع المقيم، تظهر في الأبيات هداة العالم ورزانة الحليم المسترشد بالنهج الصحيح، لا فيها دعوة لبدعة ولا حديث عن خرافة إنما اكتمال صورة المناسبة في ذهن العام والخاص، لا تبحث عن الغنائية والاستثارة العجائبية في سرد الحوادث بالادعاء، بل التزام وتمجيد للسيرة العطرة وما يستوجب المسلم اتجاهها من عبرة وقيمة وفائدة.

3.4.2. الوقوف على القبور: ومن معتقدات الشاعر الصوفي وهو يرى الشعر نمطا من الدعاء لطالبي الحاجة والتي تعد لهم من الوسيلة عنده فكان طلب الغفران والتوسل بالأسباب لقضاء الحاجة متمسكين بالنبي (ص) أو راغبين من خلال الدعاء بغيره من الأنبياء أو الأولياء الصالحين عند الله، وقد «ثبت أن عبد الحميد بن باديس قد زار طولقة وبرجها للتبرك بضريح الشيخين بن عزوز وعلي بن عمر وربما كان ذلك في حدود 1925 أو 1926 لأننا نجده يشير إلى هذه الزيارة في قصيدته أو منظومته التي نشرها بجريدة النجاح عام 1926»⁽³³⁾، وللأمانة العام كان ذلك زمن ما قبل نشأة جمعية العلماء، وما يعرف أن شيخنا بعد ذلك تغيرت عديد قناعاته وخاصة الوقوف على القبور إنما فعل ذلك في شرح الشباب تأسيا بمعلميه وأترابه العلماء والفقهاء، وللأمانة العلمية أوردنا هذه الأبيات التي قال فيها عن تعظيم شأن عالمين يستحقان الثناء والتقدير:

عوجوا نحى منازل الأمجاد ونؤدي حق زيارة الأسياد

ونحط أرجلنا بدار كرامة مبدولة الروضات للوؤاد

فهي الملاذ لكل جان خائف
وهي الشفا من وصمة الأنكاد
ما بين (طولقة) (فبرج) حيث
تبصر نور أهل الله في إصعاد⁽³⁴⁾

5. الصورة الشعرية:

1.5. الأغراض الشعرية القديمة:

1.5.1. الرثاء والتأبين: كثيرا ما ذكر الرثاء كموضوع خاص على لسان أعلام التصوف خاصة وأنهم يرون فيه الصدق والوفاء للفقيد، الذي هو لا يتعد عن كونه المعلم والموجه لذلك يحمل تصوير لتلك القيم العامة وتعبيرا عن فداحة ما فقد في هذه القامات السامقة من اندثار للمقومات الإنسانية، جراء مفارقة هذه الأرواح أجساد أصحابها طاهرة ترفع معها مطلق الكرم ومطلق التواضع والحلم والصفاء والعلم وغيرها من مطلق المعاني التي امتلكها العبد المتواضع لله وهي تختتم بذات المعاني التي تنتهي به قصائد التقريظ بالصلاة والسلام على النبي المنزه الصادق الأمين.

وقد أوتر على شيخنا الصفي في علاقاته أن رثى وأبن أعزة على قلبه قد فقد فهم المعلم والصديق، وبكى الفراق بألم وسلوان؛ كرتائه العلامة عبد القادر المجاوي، وقد جسد فضائله في خطبة طويلة ختمها بقصيدة لم أعثر في المراجع إلا من اكتفى بذكر أبياتها الثلاثة الأولى وما تحمله من هول الواقعة على نفسه والأمة قائلا:

ألا إن هذا الدهر ذو فتكات
وإنا لنا في طيه لعظات
له عصميات في النفوس فلورمي
بها الراسيات صرن منخفضات
وكم قد رماها فاصطبرنا لرميه
إلى أن رمى بأعظم النكبات⁽³⁵⁾

كما أبن صديقا له اختطفه المنون الطيب بن الشيخ الحسين بقصيدة مطلعها:

جزاك الله عنا بالغفران** وسقاك صوب العارض الهتان

1.5.2. المدح: ويقتصر كالرثاء على المشايخ العاملين في الحقل الإسلامي، ويتم فيه إطراء صفاتهم وإعلاء مكانتهم وتخليد ذكركم بجليل أعمالهم وأقوالهم ومواقفهم من خلال إبراز مآثرهم وكراماتهم واثبات أحقيتهم من التبجيل والتقديم والاحترام، وممن رآه شيخنا ابن باديس أهل لأن ينزله هذه المنزلة من أعمال الصوفية شيخه وعالم الدين المتفضل عليه بإحسان العلم وفضائل المعرفة الشيخ عبد القادر الجيلاني، وقد دت بعض المصادر أبياتها بعدد 34 بيتا مترابا نقبس منها قوله:

صل يا رب ثم سلم على من
هو نعم الشفيح في يوم البأس
وعلى الآل والصحابة من هم
صفوة المصطفى هداة الناس
أين من داره قسنطينة مم
ن ثوى في دار بني العباس
زان عقدا أنتم لآلى بدر
الجيلي الهاد الطيب الأنفاس
هو ذلك الهمام غوث الأنام
واضع المجد فوق أقوى أساس⁽³⁶⁾

ونلاحظ خطه الديني في استفتاح القصيدة بذكر الصلاة على النبي كما احتاج في مدحه ههنا الاستناد الى مفردات صوفية تعظم في استخدامها من خص بوصفها (صفوة، عقدا، الهمام، غوث)، وهذا من بروتوكولات

مدح الصوفية كما هو واضح في الاستخدام لهذا الغرض الشعري عندهم، كما أشارت المراجع لمده ابن باديس للعالم الديني عبد الحي الكتاني بقصيدة جاء في مطلعها قوله:

تبدى السعد في الحلل الهيمية ** وعم البشر في هذه البرية⁽³⁷⁾

2.5. الأغراض الشعرية الحديثة:

عرفت الحياة السياسية والثقافية تطورا وتنوعا وخاصة ما كان من نتاج الصراع الحضاري مع الوجود الاستعماري بالجزائر وما كان يعتمد المتقفون من وسائل للنضال السياسي وإثارة الجهود لمقاومة مشاريع التغريب التي تستهدف عناصر هوية الشعب الجزائري لذلك تنطلق ألسن الأحرار حينها لمقاومة تلك المحاولات ولعل من أشهرها صرخة فحلنا حينها معلنا أن لهذه البلاد وشعبها هوية ولغة ودين، فانطلق اللسان يقول:

شَعْبُ الْجَزَائِرِ مُسْلِمٌ	وَإِلَى الْعُرُوبَةِ يَنْتَسِبُ
مَنْ قَالَ حَادَ عَنْ أَصْلِهِ	أَوْ قَالَ مَاتَ فَقَدْ كَذَبَ
أَوْ رَامَ إِدْمَاجًا لَهُ	رَامَ الْمُحَالَ مِنْ الطَّلَبِ
يَا نَشْءُ أَنْتَ رَجَاؤُنَا	وَبِكَ الصَّبَاحُ قَدْ اقْتَرَبَ
هَذَا نِظَامُ حَيَاتِنَا	بِالنُّورِ حُطَّ وَبِاللَّهَبِ
فَإِذَا هَلَكْتُ فَصَيِّحْتِي	تَحِيًّا لِلْجَزَائِرِ وَالْعَرَبِ ⁽³⁸⁾

إن هذه القصيدة يمكن اعتبار من بواكير الشعر السياسي الجزائري في اصطناع الرمز من وجهة، واصطناع المجاز اللغوي من وجهة أخرى، نلاحظ أن لفظ السلاح مستعملة هنا في اتخاذ القيم ذخرا وزادا، فهو سلاح معنوي ولا مادي، على حين أن لفظ الحياة يعني الحياة معناها الكرامة والوجود.

كما تعتبر رائحته الثائرة في وجه الغطرسة الفرنسية "اشهدي يا سما"، حين غشى قوله رمزا طبيعيا مستنجدا بمظاهر الأم الرؤوم الطبيعة وكل ما يحمل من عناصرها مفهوم القوة والتحدي قد ركبه شيخنا الثائر سلاحا يرمي به العدو ويستنصر به الهمم غضبا وقوة وتحديا وتهديدا يقول:

اشهدي يَا سَمَا وَاكْتُبْنِ يَا وُجُودُ
 إِنَّنَا لِلْحِمَا سَنَكُونُ الْجُنُودُ
 فَتَزِيحُ الْبَلَاءَ وَتَنْفُكُ الْقُيُودُ
 وَنُذِيقُ الرَّدَى كُلَّ عَاتٍ كُنُودُ
 وَيَرَى جَيْلُنَا خَافَقَاتِ الْبُنُودُ
 وَيَرَى نَجْمَنَا لِلْعُلَا فِي صُعُودُ
 فَاشْهَدِي يَا سَمَا وَاكْتُبْنِ يَا وُجُودُ
 إِنَّنَا لِلْعُلَا إِنَّنَا لِلْخُلُودُ⁽³⁹⁾

لقد كان شيخنا صرخة أمان وقدوة ائتمان للشباب الجزائري الذي عاش لعقود تحت ضغط الاستعمار ممسوخ الهوية وهذه الأشعار علمه كيف يأخذ حقه وكيف يكون عزيزا في أخذها، أنار له الطريق الحق أن

ينتفض ويصرخ في وجه الظلم وأن لا يستسلم لأن في استسلامه نهايته من جديد وحينها لن تقوم له قائمة ولن يكون له وجود، والشيخ يعرف دخيلاء شباب أنشأه في محراب العقيدة ويثق في أنه قادر أن يُسمع صوته للناس جميعا ويقدر له.

كما ترصد له المصادر قصائد تخص التربية السياسية لكن بأسلوب هادئ يريد من ورائها تعليم الشباب كيف يتعامل مع الأمور الكبرى فليس كل التعامل يتشابه، وأن السياسة أسلوب حياة لها مداخل وفيها اختلاف تعامل فان أحسن الناس فيها ففيها الخير والمنفعة لذلك لا يجب على المعاشين لأسلوبها أن يتعقلوا ويحسن التفكير والعمل بها ومن تلك القصائد (السياسة في نظر العلماء، القومية والإنسانية).

وهكذا لقد كان إنتاج الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي انشده نظما من الشعر فقد كان فيه ما كان من شعر المتصوفة في أن فيه اهتمام بتقديم المعاني معتمدين على قوالب الشعر القديم غير حريصين جدا على فنية التعبير الشعري وذلك من اختيار الصيغ اللغوية البسيطة التي قد تقرب من لغة التخاطب، بهذا يمكن اعتبار هذا الإنتاج وسيلة في تحقيق غاية التعليم وجلال الغاية قد أعذر الوسيلة في تقصيرها الفني والإبداعي، وقد تخللت نقاط فنية عديدة في غير ما موضع في تلك القصائد قدمت للقارئ نفسا حساسة مبدعة وصورا شعرية أغرت عديد الشباب بمكاشفة هذا الدرب والسير على خطى المعلم في اعتماد هذا المسار الإصلاحية بذات الوسيلة والأدوات فنجحوا ببركة الشيخ وتوفيقوا بالتزام خطى الشاعر ابن باديس، وهذه إحدى لفتاته الفنية خلاصة للموضوع؛ يقول في قصيدة عنونها بالتسامح يُذكر أنها منقوشة على قبره:

سينحل جثمانى إلى التراب أصله	وتلتحق الورقا بعالمها الاسما
وذي صورتى تبقى دليلا عليها فإن	شئت فهم الكنه فسأنطق الرسما
وعن صدق إحساس تأمل فإن	في ملامح المرء ما يكسب العلما
وسامح أخاك إن ظفرت بنقصه	وسل رحمة ترحم ولا تكتسب إثمًا ⁽⁴⁰⁾

6. خاتمة:

هذه صفحة فتحها وخططت فيها ما رأيت واقتنعت، من معطيات حول الرؤية الشعرية للإمام عبد الحميد بن باديس قبل نشأة جمعية العلماء وبعد النشأة، وكيف استخدم وشجع على اعتماد الشعر وسيلة للإصلاح والمقاومة، فاستهدف في الشباب مواطن الايقاظ الشعوري، فخصص نفسه واقتطعها لذلك المشروع ونشط كل إبداعاته في ابتكار وسائل للتأثير المباشر على النشاط الشعري للشباب، وها نحن نقف على ما يلي:

✓ الشيخ الإمام عبد الحميد بن باديس ولاعتبارات فنية يمثل قدوة لشعرية الشباب وترغيبهم في جعله لسان إنتاجهم في مجال الإصلاح؛ فلم يفلت مناسبة إلا وشجع كل المرتادين له بعبارات تشجيعية وحفاوة استقبال لإنتاجهم دون حساب للسابقين في الميدان، فكان بحق طاقة إيجابية لكل الممارسين للشعر.

✓ شاعرية الشيخ أصيلة لم تخلقها الحاجة كما كان حال أغلب نظامي جمعية العلماء، بل لقد صقلها قبل الحاجة إليها في الإصلاح، واعترف له بحسنها وجمال صورها الفنية العديد من النقاد حتى غدا نشيده "شعب الجزائر مسلم" أغنية عزة وكرامة يرددها لسان الداخل والخارج تعظيما لجهاد أمة وتاريخ هوية.

✓ لم يشك ابن باديس في مشروعه الإصلاحي ولو للحظة، وكان يقين عالم الدين يحف أهدافه لذلك لم يتردد في الدعوة إلى اعتماد الشعر وسيلة لتدعيم المشروع، وتحفيزا ليقينه الوطني وثقته بالشباب.

✓ لم تعد أغلب قصائد الشيخ الإمام نظما صوفيا تأسيا بالنموذج العام للشعر الديني، بل باتت باكورة الغضبة السياسية التي اعتمدت وانتشرت بعد ذلك على ألسنة الشباب المقاوم في الجزائر انتهاجا لسبيل الوطنية التي رسمها الشيخ في أشعاره الغاضبة على الاستعمار.

✓ ومن تجربة شيخنا الشعرية وما حللناه في هذه الورقة، قد تكون من أهم أسباب نجاح المشروع الوطني لجمعية العلماء عموما كانت تلك الاستجابات التي نادى بها مشروع الجمعية وجسد إحداثياتها لغة وفكرة ودندنة أشعاره السياسية الصارخة في وجه مشاريع التغريب الفرنسية.

وهكذا نخلص إلى حكم عام حول شخصية الإمام عبد الحميد بن باديس بالشعرية التي اتسمت بالمسؤولية والمصادقية في كل موضوعاته، فلم تظهر لنا إلا وهي تقدم أنموذجا ينبض بالوطنية والأصالة والصدق، لم يمل به غصن الشعر يمنا أو يسرة، ولم يغافله ولو في لمحة يخرج عن تلك الأهداف المعلنة، فهو ومسترشديه من أدباء الإصلاح خلقوا مرحلة لا بد أن تصبح أهم فضاءات الشعرية والوطنية.

الهوامش:

1. حمزة بوكوشة، "شؤون وشجون على هامش سؤال وجوابه"، جريدة البصائر، ع 146، بتاريخ (12/3/1951م)، ص 83.
2. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1977، ص 54.
3. رمضان حمود، بذور الحياة، مكتبة الاستقامة، تونس، 1928، نقلا عن محمد ناصر، رمضان حمود حياته وآثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985، ص 59.
4. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985، ص 21.
5. تصريح لابن باديس حول أهمية الشعر العربي، الشهاب، المجموعة 06، ج2، ص 30.
6. محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1926، ص 129.
7. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، ص 25.
8. عبد الوهاب بن منصور، نحو مؤتمر أدبي جزائري، ص 218.
9. محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2005، ص 75.
10. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي، ج 8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2009، ص 229.
11. ينظر: عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، د.ط، 2006، ص 201.
12. المرجع نفسه، ص 71.
13. محمد الدراجي، الشيخ أحمد سحنون العالم الشاعر والداعية الصابر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013، ص 121.
14. عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981، ص 170.
15. سلوادي عبد الرحمان، عبد الحميد بن باديس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1984، ص 51.
16. الصالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 258.
17. عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، مرجع سابق، ص 71.
18. خالد أقيس، بنية الخطاب الأدبي في شعر الحركة الإصلاحية الجزائرية الشهاب أنموذجا، رسالة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، إشراف محمد العيد تاورته، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة، سنة 2015-2016، ص 3.
19. البصائر، ع 93، ديسمبر 1937، ص 17.
20. ميشال سليمان، شعر المناسبة بما هو ظاهرة اجتماعية مجلة الفكر العربي المعاصر، الأردن، العدد 01، مايو 1980، ص 60.
21. محمد التونجي، المعجم المفضل في الأدب، دار الكتب العلمية القاهرة، مصر، ط2، 1999، ص 273.

أبعاد المرجعيات الفكرية ونسق المناسبة في شعر عبد الحميد بن باديس

قراءة في المضامين والصورة الشعرية / د. سليم كرام

22. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1986، ص358.
23. المرجع نفسه، ص355.
24. لحسن بن علجية، أشعار الإمام عبد الحميد بن باديس. القصائد والمقطوعات والنتف الشعرية، دار قرطبة للطباعة، الجزائر، ط1، 2018، ص32.
25. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص359.
26. ينظر: المرجع نفسه، ص359.
27. المرجع نفسه، ص359.
28. المرجع نفسه، ص361.
29. المرجع نفسه، ص361.
30. يمكن الاطلاع عليها في كتاب: عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص358.
31. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص358.
32. جريدة النجاح س4، ع131، 19 نوفمبر 1923..
33. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، ص354.
34. المرجع نفسه، ص354.
35. لحسن بن علجية، أشعار الإمام عبد الحميد بن باديس، ص25.
36. المرجع نفسه، ص39.
37. المرجع نفسه، ص57.
38. المرجع نفسه، ص53.
39. هذا النشيد ارتجله الشيخ عبد الحميد بن باديس في حفل أقامته مدرسة التربية والتعليم بقسنطينة يوم 27 رمضان 1356 هـ بمناسبة إحياء ليلة القدر.
40. عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1983.

المصادر والمراجع

1. أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائري الثقافي، ج8، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط2009.
2. أبو القاسم سعد الله، دراسات في الأدب الجزائري الحديث، دار الآداب، بيروت، لبنان، ط2، 1977.
3. سلوادي عبد الرحمان، عبد الحميد بن باديس، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د.ط، 1984..
4. الصالح خرفي، الشعر الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
5. عبد الله ركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1981.
6. عبد الحميد بن باديس، مجالس التذكير من حديث البشير النذير، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، الجزائر، ط1، 1983.
7. عبد الله حمادي، دراسات في الأدب المغربي القديم، دار البعث للطباعة والنشر، قسنطينة، الجزائر، ط1، 1986..
8. عبد المالك مرتاض، معجم الشعراء الجزائريين في القرن العشرين، دار هومة للطباعة والنشر، الجزائر، د.ط، 2006.
9. لحسن بن علجية، أشعار الإمام عبد الحميد بن باديس. القصائد والمقطوعات والنتف الشعرية، دار قرطبة للطباعة، الجزائر، ط1، 2018.
10. محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر في العصر الحاضر، ج1، المطبعة التونسية، تونس، ط1، 1926.
11. محمد التونجي، المعجم المفضل في الأدب، دار الكتب العلمية القاهرة، مصر، ط2، 1999.
12. محمد زغينة، شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر، د.ط، 2005.
13. محمد الدراجي، الشيخ أحمد سحنون العالم الشاعر والداعية الصابر، دار قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 2013.
14. محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1985.
15. محمد ناصر، رمضان حمود حياته وأثاره، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط2، 1985.
16. ميشال سليمان، شعر المناسبة بما هو ظاهرة اجتماعية مجلة الفكر العربي المعاصر، الأردن، العدد 01، مايو 1980.
17. البصائر، ع93، ديسمبر 1937.

أبعاد المرجعيات الفكرية ونسق المناسبة في شعر عبد الحميد بن باديس

قراءة في المضامين والصورة الشعرية / د. سليم كرام

18. جريدة البصائر، ع 146، بتاريخ (12/3/1951م).

19. الشهاب، المجموعة 06، ج 2.

20. جريدة النجاح س 4، ع 131، 19 نوفمبر 1923.

21. خالد أقيس، بنية الخطاب الأدبي في شعر الحركة الإصلاحية الجزائرية الشهاب أنموذجا، رسالة دكتوراه العلوم في الأدب العربي الحديث، إشراف محمد العيد تاورثة، جامعة الاخوة منتوري، قسنطينة، سنة 2015- 2016.